الفصل الأول

أحـوال النبي ﷺ في الحج مع ربـه

أحوال النبي ﷺ في الحج مع ربه

عظم الصلة بالله ـ تعالى ـ، وقوة الارتباط به: ثروة المتقين، ورأس مال العابدين، ويُعدُّ الحج من أهم محاضن التقوى ومدارس العبودية، تتقوى فيه صلة العبد بالله، وتتربى به النفس البشرية على التقلب في مقامات العبودية، ومنازل الخضوع لله والانكسار بين يديه سبحانه. وقد قام النبي ﷺ فيه ـ وهو أعبد الناس لربه، وأكثرهم تعلقاً وارتباطاً به ـ بأدوار مختلفة؛ إذ علَّم الحجيج وقادهم، واعتنى بزوجاته ورعاهُنَّ، وأحسن إلى أهل بيته وصبر عليهم، ولكن ذلك لم يَحُل بينه وبين عظم الصلة بربه ودوامها، ولم يشغله عن الانكسار التام بين يدي مولاه.

ولو أخذنا نعدد صور خضوعه ﷺ في الحج لربه، ومظاهر انقياده فيه لخالقه لطال المقام؛ ولذا فسيتم الاقتصار على أهمها، ومن ذلك:

١ـ تحقيق التوحيد والعناية به:

يُعَدُّ التوحيد أبرز القضايا الرئيسة التي عمل النبي ﷺ في الحج على تحقيقها والعناية بها؛ امتثالاً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٦] الذي تضمن الأمر بإخلاص النُّسك وإتقانه(١)، وهذا جلي لمن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي: ٩٠.

تأمل أعماله ﷺ في الحج. **ولعل من أبرز ما ظهر فيه ذلك:**

التلبية ـ وهي شعار الحج[١] ـ التي تتضمن إفراد الله ـ وحده لا شريك له ـ بالعمل، كما جاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «فأهلَّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[٢]، قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «لا يزيد على هؤلاء الكلمات»[٣]، وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال في تلبيته: «لبيك إله الحق، لبيك»[٤].

ومنها: عنايته ﷺ بإخلاص العمل، وسؤاله من ربه أن يُجنِّبه الرياء والسمعة، كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[٥].

ومنها: قراءته ﷺ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص، كما روى جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «فقرأ فيهما بالتوحيد، و ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾

(١) جاء جعل التلبية شعاراً للحج في حديث حسن، أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، رقم: ٢٦٢٨، ٢٦٢٩.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٥٩١٥، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

(٤) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٩٢٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٦٢.

(٥) سنن ابن ماجة، رقم: ٢٨٩٠، وضعف إسناده الحافظ في الفتح: ٣/٤٤٦، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة: ٢٦١٧.

[**الكافـرون**: ١]»(١)، وفي رواية: «قـرأ في ركـعـتي الطواف بسـورتي الإخلاص: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِـرُونَ**﴾ [**الكافـرون**: ١] و﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [**الإخلاص**: ١] »(٢).

ومنها: دعاؤه ﷺ على الصفا والمروة بالتوحيد، كما في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: « .. فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبَّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحـده.... ـ قال مثل هذا ثلاث مرات ـ... حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا... »(٣).

ومنها: دعاؤه ﷺ في عرفة بالتوحيد، كما في حديث: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»(٤)، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله..» الحديث، وزاد فيه: «بيده الخير»(٥).

والناظر في أحوال كثير من الحجاج ـ والمسلمين عموماً ـ في هذا الزمان

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٩٠٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٦٨٩.
(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٦٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٨٩.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.
(٤) جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.
(٥) المسند لأحمد: ٦٩٦١، وفي سنده ضعف، لكن له شاهد يقوى به، فهو حسن لغيره.

يرى ـ مع الأسف الشديد ـ ألواناً من البدع والخرافات،بل والشركيات التي تطاير شررها بين الناس،ولذا فإن على الدعاة وأهل العلم ـ وبخاصة في هذا الجمع المبارك ـ مسؤولية عظيمة في تعليم الناس أصول الدين وبيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل،وتحذيرهم من الشرك بنوعيه والضلالات.وقد كان من هدي النبي ﷺ البدء بأمر التوحيد، وتقديمه على كافة الأركان العملية، فعندما بعث معاذاً ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله،وأني رسول الله،فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة،فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم،تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فقرائهم»(١).

فما أحرى بك ـ أخي الحاج ـ أن تحقق التوحيد في نفسك، وتجعل منها حاملة له داعية إليه في آن واحد.

٢ـ تعظيم شعائر الله:

حث الله ـ تعالى ـ عباده على تعظيم شعائره وإجلالها(٢)،وحفظ حرماته

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٣٩٥.

(٢) يراد بشعائر الله ـ تعالى ـ: معالمه ومواضع عبادته، وكل أمر له ـ سبحانه ـ أشعر به وأعلم، ولذا قال عطاء: «شعائر الله: جميع ما أمر الله به ونهى عنه»، وقال الحسن: «هي دين الله كله»، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/ ٣٧، ٦/ ٣٧، ١٢/ ١٨٠.

وصيانتها،وجعل ذلك ركن التقوى،وشرط العبودية،وسبيل العبد لنيل الثواب، وتحصيل الخير عند لقائه ربِّ الأرباب، فقال - سبحانه -: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [**الحج**: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [**الحج**: ٣٠]، وقال ﷺ - وهو المبلغ عن الله -: « اتق المحارم تكن أعبد الناس »[١]، وفي المقابل حذَّر - عز وجل - من الاستخفاف بشعائره، وهتك حرماته، وقربان حدوده، وتناولها بما لا يحل، فقال - تعالى - عن البيت الحرام: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [**الحج**: ٢٥]،وقال - سبحانه -: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٢٩]، وقال - عز من قائل -: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [**النساء**: ١٤].

فعقل ذلك المصطفون، وأدركه العارفون، وكان على رأس القوم: إمام المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، أكثر المتقين لشعائر الله - تعالى - تفخيماً وتوقيراً، وأعظمهم لحرماته مراعاة وصيانة، وأبعدهم عن انتهاك حدوده وتجاوز حماه.

وفي الحج بان تعظيمه ﷺ لشعائر الحج[٢]، وحفظه لحرماته من خلال صور شتى، كان من أبرزها:

---

(١) جامع الترمذي، رقم: ٢٣٠٥، وحسنه الألباني في صحيح سن الترمذي، رقم: ١٨٧٦.

(٢) شعائر الحج هي: أعمال النسك ومواضعه، انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٣/٥٠٩.

اغتساله ﷺ للإحرام، وتلبيده لرأسه[١]، وتطيُّبه بعد الغسل بأطيب طيب وجد، كما في حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ « أنه رأى النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل »[٢]، وحديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: « سمعت رسول الله ﷺ يُهِلُّ ملبِّداً »[٣]، وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: « كنت أُطَيِّب رسول الله ﷺ قبل أن يُحْرِم بأطيب الطيب »[٤]، وفي رواية: « كنت أُطيِّب النبي بأطيب ما يجد، حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته »[٥].

ومنها: سَوقه ﷺ البُدْن معه هدياً من ذي الحليفة، وهي من شعائر الله، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ [**الحج**: ٣٦]،وإشعاره ﷺ وتقليده لبعضها بيده الشريفة[٦]، كما في حديث ابن

(١) تلبيد الرأس: جعل شيء في الشعر كالصمغ ونحوه، ليجتمع الشعر ويسكن فلا ينتشر ويتشعث أو يقع فيه قمل أثناء الإحرام، انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/٤٠٠.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٣٠، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦٤.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٠.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١١٨٩، سنن الدارمي، رقم: ١٨٠١، واللفظ له.

(٥) صحيح البخاري ، رقم: ٥٩٢٣ .والمراد بـ (وبيص الطيب): بريقه ولمعانه. انظر لسان العرب مادة (وبص).

(٦) يراد بإشعار البُدْن: حز سنامها حتى يسيل منه الدم؛ ليكون ذلك علامة لها يعرف بها أنها هدي، ويراد بتقليدها: وضع قلادة من نعل ونحوه على أسنمتها وأعناقها؛ ليكون ذلك علامة على أنها هدي، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/٣٧، ٦/٤٠.

عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحُلَيفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن، وسَلَتَ الدم، وقلَّدها نعلين»(١)، قال ابن كثير: «وهذا يدل على أنه ـ عليه السلام ـ تعاطى هذا الإشعار والتقليد بيده الكريمة في هذه البدنة، وتولى إشعار بقية الهدي وتقليده غيره»(٢)، ومصداق ذلك الرواية الأخرى، وفيها: «وأمر ببُدْنه أن تشعر من شقها الأيمن»(٣). وكذا: نهيه ﷺ الواجد عن ركوب الهدي، كما يدل لذلك حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظهراً»(٤).

ومنها: لهجه ﷺ بالتلبية من لدن دخوله في النُّسك إلى حين رميه جمرة العقبة يوم النحر، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن النبي ﷺ لبى حتى رمى جمرة العقبة»(٥)، وحديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «والذي بعث محمداً بالحق لقد خرجت مع رسول الله ﷺ من منى إلى عرفة فما ترك التلبية حتى رمى جمرة العقبة إلا أن يخلطها بتهليل أو تكبير»(٦).

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٤٣.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٨.
(٣) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٦٠٩، وإسناده صحيح.
(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٣٢٤.
(٥) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٦٤.
(٦) المستدرك للحاكم: ١/ ٤٦١، صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٨٠٦، وإسناده حسن.

وكذا رفعه ﷺ الصوت بها حتى سمعها أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ منه، كما يدل لذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يُهِلُّ مُلَبِّدَ يقول: لبيك...»(١)، وحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن جبريل أتاني فأمرني أن أعلن بالتلبية»(٢)، وحديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ نصرخ بالحج صراخاً»(٣).

ومنها: اغتساله ﷺ قبل دخول مكة؛ ليزيل عنه شعث السفر، وبدؤه حين دخل المسجد بالطواف، كما روى نافع أن ابن عمر كان لا يقدم مكة إلا بات بذي طوى حتى يصبح ويغتسل، ثم يدخل مكة نهاراً، ويذكر عن النبي ﷺ أنه فعله(٤)، وكما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أن أول شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ، ثم طاف»(٥).

(١) صحيح البخاري، رقم: ٥٩١٥، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ٢٩٥٠، وإسناده حسن، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه الكرام ورغبهم بالصدع بذلك، إذ قال ﷺ: «أتاني جبريل ـ عليه السلام ـ فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال أو التلبية»، أخرجه أحمد في المسند، رقم: ٨٣١٤، والبيهقي في الكبرى: ٥/٤٢، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع، رقم: ١٣٨٤، وقال ﷺ: «ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا»، أخرجه ابن ماجة في سننه، رقم: ٢٩٢١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٦٣.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢٤٧.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٩.

(٥) صحيح البخاري، رقم: ١٦١٥.

ومنها: احتفاؤه ﷺ بالحجر الأسود، إذ التزمه وقبَّله وسجد عليه، وبكى عند ذلك، واستلامه ﷺ للركن اليماني، كما جاء عن سويد بن غَفَلة، قال: «رأيت عمر قبَّل الحجر والتزمه، وقال: رأيت رسول الله ﷺ بك حفياً»(١)، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - «أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أكبَّ على الركن، فقال: إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أَرَ حِبِّي ﷺ قبَّلك واستلمك ما استلمتك ولا قبَّلتك»(٢)، وعنه أيضاً قال: «رأيت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قَبَّله وسجد عليه، ثم قال عمر - رضي الله عنه -: رأيت رسول الله ﷺ فعل هكذا، ففعلت»(٣)، وعن جابر - رضي الله عنه - قال: «فبدأ بالحجر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء»(٤)،وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كان رسول الله ﷺ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوفة»(٥).

ومنها: صلاته ﷺ خلف المقام، وبدؤه السعي بالصفا،وقيامه عليه وعلى المروة ؛ للذكر والدعاء، كما جاء في حديث جابر - رضي الله عنه - الطويل قال:

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٧١.

(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٣١، وإسناده جيد قوي.

(٣) المسند للطيالسي: ١/ ٢١٥ - ٢١٦، وإسناده حسن، كما قال ابن كثير في السيرة: ٤/ ٣٠٧، السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٧٤، ورجاله ثقات.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٧٤، وقال ابن كثير في السيرة النبوية: ٤/ ٣١٧، وهذا إسناد جيد.

(٥) سنن أبي داود، رقم: ١٨٧٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٥٢.

« ثم نفذ إلى مقام إبراهيم - عليه السلام - فقرأ: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ [**البقرة**: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت، ... ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾ [**البقرة**: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة... ففعل على المروة كما فعل على الصفا »(١)، وفي رواية قال: « ثم أتى المقام فقال: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ [**البقرة**: ١٢٥]، فصلى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت... »(٢).

ومنها: وقوفه ﷺ طويلاً بالمشعر الحرام؛ امتثالاً لقوله - تعالى -: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ [**البقرة**: ١٩٨]، ذاكراً لربه - تعالى - فيه، وملتجئاً إليه، ومنطرحاً بين يديه، قال جابر - رضي الله عنه - واصفاً الحال: « وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٨٥٦، وقال: حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٧٩.

ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس »[١].

ومنها : تطيُّبه ﷺ لزيارة البيت يوم النحر بعد حِلِّه الأول، كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « طيبت رسول الله ﷺ من منى قبل أن يزور البيت »[٢].

ومنها : تعظيمه ﷺ لزمان النُّسك ومكانه، إذ قال ﷺ : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا »[٣]، وقال ﷺ : « إن أعظم الأيام عند الله ـ تبارك وتعالى ـ يوم النحر ثم يوم القُرِّ »[٤]، وقال ﷺ : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب »[٥]، وقال ﷺ محرضاً الحجيج على صيانة ذلك،

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٢) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٩٣٤، صحيح ابن حبان، رقم: ٣٨٨١، واللفظ له، وإسناده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) سنن أبي داود، رقم: ١٧٦٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٥٥٢، ويوم القُرِّ: اليوم التالي ليوم النحر، وسمي بذلك؛ لأن الناس يَقِرُّون فيه بمنى ويقيمون، انظر: النهاية لابن الأثير: ٤ /٣٧.

(٥) جامع الترمذي، رقم: ٧٧٣، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٢٠.

وعدم هتك حرمة شيء منه،: «والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١)،وقال ﷺ :«من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه»(٢)،وهذا كقوله ـ تعالى ـ:﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [**البقرة**: ١٩٧].

ومن تأمل في الحج اليوم وَجَد: انتهاكاً صارخاً ـ من قبل كثيرين ـ لحدود الله وحرماته،واستهانة جلية بأعمال الحج ومواضعه، وذلك ناتج عن عدم قَدْر الله حق قدره، كما يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كلام له نفيس:«لم يُقدِّره حق قدره: من هان عليه أمره فعصاه،ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه،وذكره فأهمله،وغفل قلبه عنه،وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه،وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله، فللَّه الفَضْلَة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك؛لأنه المهم عنده!»(٣)،ولذا فواجبك ـ أخي ـ:التأسي برسول الله ﷺ في إجلال شعائر الله وتعظيم حدوده،والقيام بنسكك على وجهه،وأن تتواصى مع الخلق بالحق،وبالصبر عليه.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٣، صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٩.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٨١٩.

(٣) الجواب الكافي لابن القيم: ٩٨.

٣ـ إظهار البراءة من المشركين وتعمُّد مخالفتهم:

الإسلام والشرك ضدان لا يجتمعان،لا يوجد أحدهما إلا بذهاب الآخر، كالليل والنهار، والشمس والقمر،ولذا فقد كان أول أمر قام به المسلمون بعد أن استتب لهم الأمر في مكة، هو: إزالة مظاهر الشرك، وطمس معالم الوثنية، بل إن النبي ﷺ أعطى ذلك طابع الاستعجال، فحين دخل المسجد الحرام أخذ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بعُود في يده،ويقول: «﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ** ﴾ [**الإسراء**: ٨١]، ﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ [**سبأ**: ٤٩]»(١)، وامتنع ﷺ عن دخول الكعبة حتى تُخْرَج منها الأوثان، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إن رسول الله ﷺ لما قدم أَبَى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت»(٢)، وحين أنزل الله ـ تعالى ـ بعد ذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾ [**التوبة**: ٢٨]، بادر ﷺ إلى امتثال أمر ربه، فأمر صاحبه أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بأن يؤذن في الناس سنة تسع: «أن لا يحج بعد العام مشرك»(٣).

وحرص ﷺ في حجته على تقصد مخالفة المشركين، والسير على سنَّة أبينا

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٢٨٧.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٦٠١.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٣٦٩، صحيح مسلم، رقم: ١٣٤٧، سنن النسائي، رقم: ٢٩٥٨.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ في كثير من شعائر الحج وأحكامه، ووصل الأمر غايته حين قال ﷺ للناس عن المشركين: «هدينا مخالف هديهم»(١)، وحين تبرأ ﷺ من أعمالهم في خطبته بعرفة فقال: «ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث،كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل.وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا،ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»(٢).

كما تجلى ذلك بإظهاره ﷺ وحدة الدين الملِّي،وذلك حين أرسل ﷺ ابن مربع ـ رضي الله عنه ـ إلى الناس،وهم وقوف بعرفة، يقول لهم: «كونوا على مشاعركم؛ فإنكم على إرث إبراهيم»(٣)، وتجلى ـ أيضاً ـ ببيانه للناس بأن لهم تاريخاً مجيداً،وسلفاً عظيماً من الموحدين في أداء النُّسك، إذ ذكر ﷺ لهم في أكثر من مقام حج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ للبيت، ومن ذلك:قوله ﷺ حين مرَّ بوادي الأزرق:«أيُّ واد هذا؟ فقالوا:هذا وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلى موسى ـ عليه السلام ـ هابطاً من الثَّنِيَّة، وله جُؤار إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثَنيَّة هَرْشَى، فقال:أيُّ ثَنِيَّة هذه؟ قالوا: ثَنِيَّة هَرْشَى، قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى ـ عليه السلام ـ على ناقة حمراء جَعْدَة، عليه جبة من صوف، خُطَام

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/١٢٥، واللفظ له، المستدرك للحاكم: ٢/ ٣٠٤،وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وظاهر صنيع ابن كثير في التفسير: ١/٢٤٢ تصحيحه.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠١١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم:٢٤٣٨.

ناقته خُلْبَة، وهو يلبي »(١)، وقوله ﷺ: « والذي نفسي بيده ليُهِلَّن ابن مريم بفَجِّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليَثْنِيَنَّهُمَا »(٢)،وما روي عنه ﷺ أنه قال:« في مسجد الخيف قبر سبعين نبياً »(٣).

أما الشعائر والأعمال التي بان فيها تَعَمُّده ﷺ مخالفة المشركين فكثيرة، من أبرزها:

التلبية: إذ كان المشركون يضمنونها الشرك بالله، ويقولون فيها: « إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك »، فوحَّد النبي ﷺ فيها ربه،ونبذ الشرك وتبرأ منه، وأفرد الله ـ تعالى ـ بالعبادة(٤).

ومنها: وقوفه ﷺ مع الناس بعرفة،ومخالفته لكفار قريش الذين كانوا

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٦٦، وثَنِيَّة هَرْشَى:جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة، والجُؤار: رفع الصوت، و الناقة الجَعْدَة: كثيرة اللحم، والخُطام:حبل يجعل في أنف الناقة لتقاد به، والخُلْبَة: الليف، انظر: شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/٢٢٩.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٢٥٢، وفَجِّ الروحاء: مكان بين مكة والمدينة، كان طريق رسول الله ﷺ عام الفتح، وعام حجة الوداع، وقوله: يَثْنِيَنَّهما بفتح الياء في أوله،أي: يقرن بين الحج والعمرة، انظر: شرح مسلم للنووي: ٨/٢٣٤.

(٣) المعجم الكبير للطبراني، رقم: ١٣٥٢٥، مختصر زوائد البزار، رقم: ٨١٣، وقال ابن حجر إسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٢٩٧: رواه البزار، ورجاله ثقات،وذكر البوصيري في إتحاف السادة المهرة، رقم: ١٠٩٣ بأن إسناده صحيح،وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم: ٤٠٢٠.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١١٨٥.

يقفون في مزدلفة،ويقولون :لا نفيض إلا من الحرم(١).

ومنها : إفاضته ﷺ من عرفة بعد مغيب الشمس،ومن مزدلفة قبل طلوعها، مخالفاً هدي المشركين الذين كانوا يفيضون من عرفة قبل المغيب،ومن مزدلفة بعد الشروق، كما جاء في حديث المِسْوَر بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ قال :« خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعد : فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من ههنا عند غروب الشمس، حين تكون الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها، فهَدْيُنا مخالف لهديهم .وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسها، فهَدْيُنا مخالف لهديهم »(٢)،وحديث عمرو بن ميمون، قال : « حججنا مع عمر بن الخطاب، فلما أردنا أن نفيض من المزدلفة، قال :إن المشركين كانوا يقولون : أَشْرِقْ ثَبير كيما نُغير،وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس،فخالفهم رسول الله ﷺ، فأفاض قبل طلوع الشمس »(٣).

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٥، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٩.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ١٢٥، المستدرك للحاكم: ٢/ ٣٠٤،وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي،واللفظ له، المعجم الكبير للطبراني: ٢٠/ ٢٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٥٥: رجاله رجال الصحيح، وانظر نحواً منه عند: ابن خزيمة، رقم: ٢٨٣٨، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وهو حديث حسن.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٤، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٢، واللفظ له، وثَبير: جبل معروف على يسار الذاهب إلى منى ، وهو أعظم جبال مكة، ونغير: أي نسرع العَدْو، والمعنى: لتطلع عليك الشمس كيما نسرع في الدفع للنحر ، انظر: فتح الباري: ٣/ ٥٣١.

ومنها: إعماره ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد الحج، مخالفة للمشركين الذين كانوا لا يرون حل العمرة إلا إذا دخل صفر، كما جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «والله ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك، فإن هذا الحي من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عفا الوَبَر، وبرأ الدَّبَر، ودخل صفر، فقد حلَّت العمرة لمن اعتمر، فكانوا يُحَرِّمُون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة والمحرم»(١).

ومنها: قصده ﷺ مراغمة المشركين بإظهار شعائر الإسلام في الأماكن التي أظهروا بها الكفر والعداوة لله ورسوله ﷺ،وذلك حين قال ﷺ بمنى: «نحن نازلون غداً بخَيْف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر ـ يعني ذلك المحصَّب ـ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب ـ أو بني المطلب ـ أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ»(٢)، فلم يبرم الله لهم أمراً، بل كبتهم وردَّهم خائبين، فنصر نبيه ﷺ، وأعلى كلمته، وأتم دينه القويم، قال ابن القيم: «وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه، أن يقيم شعار التوحيد في مواضع شعائر الكفر، كما أمر النبي

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٩٨٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٧٥٠، ومعنى عفا الوَبَر: أي كثر وبر الإبل الذي حلق بالرحال أثناء السفر عليها للحج، ومعنى برأ الدَّبَر: تعافى ما كان يحصل بظهور الإبل من جرح ونحوه ؛ نتيجة الحمل عليها ومشقة السفر، انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/٤٢٦.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ١٥٩٠.

ﷺ أن يُبْنَى مسجد الطائف موضع اللات والعزى»(١).

ولم تقتصر المخالفة على فعله ﷺ بل أمر أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بها حين لا يتأتى له ذلك، كأمره ﷺ في الإحرام لمن لم يكن قرشياً بمخالفة قريش فيما ابتدعته أن لا يطوف بالبيت أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم إلا في ثياب أحدهم، فإن لم يجد طاف عرياناً(٢)، إذ أمر ﷺ في العام التاسع من الهجرة أن يؤذَّن في الناس بالحج: «ألا يطوف بالبيت عريان»(٣). وكأمره ﷺ لأصحابه ممن لم يسق الهدي بالتمتع؛ ليكون نسكهم مخالفاً للمشركين الذين كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور(٤). وكأمره ﷺ للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ بالسعي بين الصفا والمروة إذ قال ﷺ: «اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعي»(٥)، مخالفاً في ذلك ما كانوا عليه في الجاهلية ـ حين يتنسكون لأصنامهم ـ أنه لا يحل لهم السعي بينهما، كما بينت ذلك عائشة ـ رضي الله عنها ـ لعروة ابن الزبير حين قال لها: «ما أرى علي جناحاً أن لا أتطوف بين الصفا والمروة. قالت: لِمَ؟ قلت: لأن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ [**البقرة**: ١٥٨]. فقالت: لو كان كما تقول لكان: فلا

(١) زاد المعاد: ٢/١٩٤-١٩٥، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/٤٠٨.
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/٥٦٥.
(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٢٢.
(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٧٢٣٠.
(٥) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٧٦٤، وهو حديث صحيح.

جناح عليه أن لا يطَّوف بهما، إنما أنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أَهَلُّوا، أَهَلُّوا لمناة في الجاهلية،فلا يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا ذلك له، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية، فلعمري ما أتم الله حجَّ من لم يطف بين الصفا والمروة »[١].

ولذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ بأن « الشريعة قد استقرت ـ ولا سيما في المناسك ـ على قصد مخالفة المشركين »[٢].

فبشرى ثم أخرى لمن تأسى بالنبي ﷺ في هذا الهدي الكريم، فاتقى الوقوع في شيء من دين المشركين، وتعمد ـ في حياته كلها ـ مخالفتهم فيما هو من خصائصهم؛ لأن « من تشبه بقوم فهو منهم »[٣]، و « من أحب قوماً حشر معهم »[٤].

٤ـ كثرة التضرع والمناجاة والدعاء:

للدعاء منزلة رفيعة إذ هو « إظهار غاية التذلل،والافتقار إلى الله، والاستكانة

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٤٣، صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٧، واللفظ له.

(٢) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود: ٥/١٤٦.

(٣) سنن أبي داود، رقم: ٤٠٣١، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٤٠١: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣/١٩ جازماً به بلا سند، ويشهد له حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عند البخاري، رقم: ٦١٦٩، ولفظه: « المرء مع من أحب »، وحديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عنده أيضا، رقم: ٣٦٨٨، ولفظه: « أنت مع من أحببت ».

له »(١)، ولذا جعل النبي ﷺ العبادة الحقة ليست غير الدعاء، فقال: « الدعاء هو العبادة »(٢) ،أي: معظمها وركنها الأكبر؛ لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه(٣)، وأخبر ﷺ بأن « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء »(٤).

وفي الحج كان للنبي ﷺ منه أوفر الحظ والنصيب، فقد دعا ربه في الطواف(٥)،وعند الوقوف على الصفا والمروة،وأطال في الدعاء والابتهال يوم عرفة - وهو على ناقته رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين - منذ أن استقر في مقامه الذي وقف فيه، من لدن الزوال بعد الصلاة إلى أن غربت الشمس، وفي مزدلفة في المشعر الحرام أطال في التضرع والمناجاة منذ أن صلى الفجر في أول الوقت إلى أن أسفر جداً قبل أن تطلع الشمس(٦)، وفي أيام التشريق بعد رمي الجمرتين الأوليين كان ﷺ يستقبل القبلة، ويقوم قياماً طويلاً يدعو ويرفع

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ٩٨.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٢٩٦٩، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٥٩٠.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٩/ ٢٢٠، عون المعبود للعظيم آبادي: ٤/ ٣٥٢.

(٤) صحيح ابن حبان، رقم: ٨٧٠، وإسناده حسن.

(٥) انظر: سنن أبي داود، رقم: ١٨٩٢، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٦٦.

(٦) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

يديه(١)، قال ابن القيم: «بقدر سورة البقرة»(٢).

هذا شيء مما نقل عنه في دعاء المسألة، أما دعاء الثناء والذكر فلم يفارقه ﷺ منذ أن خرج من المدينة إلى أن عاد إليها، إذ لم يزل ﷺ رطب اللسان بذكر الله، مكثراً من الثناء على الله بما هو أهله، من تلبية وتكبير وتهليل وتسبيح وتحميد، راكباً وماشياً، وفي جميع أحواله ﷺ، كما هو جلي لمن قرأ صفة حجه ﷺ، وتتبع أحواله فيه(٣).

ومن الأهمية بمكان التنبيه على أن المنقول من دعائه ﷺ وتضرعه وثنائه على ربه في الحج قليل جداً بالنسبة لما لم ينقل؛ إذ الأصل أن ذلك سِرٌّ بين العبد وربه، وكل أحد يناجي ربه بما هو محتاج إليه، وإنما جهر ﷺ بما جهر به حين كان يريد تأسي أمته به، كما يدل عليه حديث جابر - رضي الله عنه - قال، «ثم قرأ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ [**البقرة**:

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١.

(٢) زاد المعاد: ٢/٢٨٥، ولعل مستنده في ذلك فعل ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي أورده البيهقي في السنن: ٥/١٤٩ قال: عن وبرة قال: «قام ابن عمر حين رمى الجمرة عن يسارها، نحو ما لو شئت قرأت سورة البقرة»، وقال البيهقي: وروينا عن أبي مِجْلَز في حزر قيام ابن عمر قال: «وكان قدر قراءة سورة يوسف»، وعن ابن عباس: «أنه كان يقوم بقدر قراءة سورة من المئين».

(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال الأحاديث التالية: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ١٥٥٠، ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٩٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، جامع الترمذي، رقم: ٣٥٨٥، وقال: حسن غريب، وحسن الحديث الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٨٣٧.

١٢٥]، ورفـع صوتـه يُسْـمِع الناس»(١)، وإلا فـإن ذكـر الله من غـايات الحج ومقاصده العظام كما يُلْمَح ذلك من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ [**البقرة**: ١٩٩ ـ ٢٠٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ** ﴾ [**الحج**: ٢٨]، بل إن أعمال الحج وشعائره إنما شرعت لذكر الله ـ تعالى ـ، كما يدل عليه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً: «إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة،ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»(٢)،وحديث نُبَيْشَة الهذلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»(٣).

والملاحظ أن الأدعية المنقولة عنه ﷺ في الحج من الأدعية الجامعة كقوله

---

(١) سنن النسائي، رقم: ٢٩٦١، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٧٧١.

(٢) جامع الترمذي، رقم: ٩٠٢، وقال: حسن صحيح، المستدرك للحاكم: ١/٤٥٩، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه،ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير، رقم: ٢٥٨٩ بالصحة، وحسنه الأرناؤوط في جامع الأصول رقم: ١٥٠٥، وخالفهم الألباني فضعفه في ضعيف الجامع، رقم: ٢٠٥٦.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١١٤١.

ﷺ بين الركنين اليمانيين: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[١].

ولذا فالموفق من تأسى به ﷺ في ذلك، فأكثر التضرع والابتهال والمناجاة،وأظهر الافتقار إلى الله ـ تعالى ـ والاحتياج إليه، وخضع لمولاه وانكسر بين يديه، ولزم الذكر بحضور قلب،والسؤال بدعاء جامع، دون أن يضيع وقته فيما لا ينفع،أو يشقق الأمور فيما يطلب[٢].

٥ـ الغضب لله والتوقف عند حدوده:

غضب العبد لله ـ تعالى ـ،وتوقفه عند حدوده ـ عز وجل ـ:غاية التقوى،ودليل صدق الإيمان،وعلامة كمال العبودية، وقد كان النبي ﷺ أتقى الناس لربه،وأغضبهم له،وأعلمهم بحدوده،وقد لاح ذلك في الحج عبر مشاهد شتى، من أوضحها:

مكثه ﷺ بذي الحليفة يوماً كاملاً، ليصلي فيه وينتظر من يريد اللحاق به، امتثالاً لأمر ربه ـ عز وجل ـ،كما يدل على ذلك حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: « سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق[٣] يقول: أتاني الليلة آت

(١) سنن أبي داود، رقم: ١٨٩٢، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٦٦.
(٢) انظر في عدم تشقيق الدعاء: أثراً لأنس ـ رضي الله عنه ـ عند ابن كثير في التفسير: ١/ ٥٥٩.
(٣) سمى بوادي العقيق: عدة أودية حول المدينة، والمراد به هنا الذي في بطن ذي الحليفة، والذي يبعد عن المدينة أربعة أميال، انظر: معجم البلدان للحموي: ٤/ ١٣٩، فتح الباري لابن حجر: ٣/ ٣٩٢، ويشهد لذلك حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ: «أنه رئي وهو في مُعَرَّس بذي الحليفة ببطن الوادي، قيل له: إنك ببطحاء مباركة»، أخرجه البخاري، رقم: ١٥٣٦.

من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك،وقُلْ:عمرة في حجة»[١]، وذلك أنه ﷺ خرج ـ على المختار ـ من المدينة يوم السبت بعد أن صلى الظهر فيها أربعاً،ولم يمض من ذي الحليفة إلا يوم الأحد بعد أن صلى الظهر فيها ركعتين[٢]،قال ابن كثير: «الظاهر أن أمره ـ عليه السلام ـ بالصلاة في وادي العقيق هو أمر بالإقامة به إلى أن يصلي الظهر؛لأن الأمر إنما جاءه في الليل،وأخبرهم بعد صلاة الصبح، فلم يبق إلا صلاة الظهر،فأمر أن يصليها هنالك»[٣]،وفي ذلك التوقف والانتظار من المشقة الظاهرة على مسافر معه عشرات الآلاف من البشر ما هو جلي.

ومنها: ما حصل عندما لم يحل ﷺ من إحرامه؛ مراعاة لأصحابه؛ لأنه ساق الهدي، وذلك أنه ﷺ أمر من لم يسق الهدي بأن يُحِلُّوا إحرامهم ويجعلوا حجهم عمرة، فتأخر القوم في ذلك ظناً منهم أنه لم يعزم عليهم، وإنما أبان لهم الجواز، وقال بعضهم ـ معبِّراً عن عدم رغبته في الحل من الإحرام ـ: «نأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المنيّ!»، فقام النبي ﷺ عند ذلك من بينهم مغضباً لله أن لا يستجاب له، وهو رسول الله، ودخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو كذلك، فقالت له: «من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار؟! قال: أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر؛ فإذا هم يترددون، ولو أني استقبلت

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٥٣٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢١٥ـ ٢١٨، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ١٠٢ـ ١٠٦.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٢.

من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتى أشتريه، ثم أُحِل كما حَلُّوا»(١)، ثم خرج ﷺ فقام فيهم، فقال:« قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم،ولولا هديي لحللت كما تُحِلُّون؛ فحِلُّوا»(٢)، فاستجاب الناس له ﷺ، وسمعوا وأطاعوا.

ومنها: قوله ﷺ عن زوجه صفية ـ رضي الله عنها ـ حين حاضت ليلة النفر، وقبل أن يعلم أنها طافت طواف الإفاضة يوم النحر ـ: « ما أراها إلا حابستكم »(٣) مع ما في ذلك من الحرج الشديد له أمام الخلق؛ إذ كيف يُحبَسون بسببها عن النفير؟!.

فاقتدِ ـ يا عبد الله ـ بخير الورى ﷺ، وكن ممن يغضب لربه إذا انتهكت محارمه،ويقف عند حدود مولاه، ولا يتجاوز شيئاً من أوامره ونواهيه، واحذر من مخالفة ذلك؛ فإنه من أسباب الهلكة، والإصابة بالفتنة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [**النور**: ٦٣]، وامتثل في حياتك كلها ـ إذا أردت النجاة ـ قوله ﷺ:« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم: كثرة مسائلهم،واختلافهم على أنبيائهم »(٤)، والزم ما أوصاك به

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢١١.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٧٣٦٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٦.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ١٧٧٢.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٧٢٨٨، صحيح مسلم، رقم: ١٣٣٧، واللفظ له.

العارف حين قال لك: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا. فأصغ لها سمعك؛ فإنه خير تؤمر به أو شر تُصْرف عنه»[١]،وإياك أن تحيد عن ذلك؛ فإنه من أسباب الشقاوة، وحرمان السعادة.

٦ـ الخشوع والسكينة:

يُدْرَك حضور القلب وخشوعه بسكون الجوارح ووقارها؛ إذ الظاهر عنوان الباطن[٢]،وقد جمع النبي ﷺ في حجه بين الأمرين فكان حاضر القلب، غير متشاغل بشيء عن نسكه، خاضعاً لربه فيه، ذليلاً منكسراً بين يدي مولاه، باكياً ساكب العبرات، مكثراً من التضرع والمناجاة، مع إطالة للقيام ورفع لليدين أثناء ذلك[٣]، **يدل لذلك نصوص عديدة، منها**: قول جابر ـ رضي الله عنه ـ واصفاً حال النبي ﷺ في الطواف: «فبدأ بالحَجَر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء، ثم رَمَلَ ثلاثاً ومشى أربعاً حتى فرغ، فلما فرغ قَبَّل الحجر،ووضع يديه عليه، ومسح بهما وجهه»[٤].

وما رواه سالم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه ﷺ كان يرمي الجمرة الأولى ثم يتقدم فَيُسْهِل، فيقوم قياماً طويلاً مستقبل القبلة، فيدعو رافعاً يديه،

(١) سنن سعيد بن منصور، رقم: ٨٤٨، والأثر من قول: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٢ / ٢٦٤.
(٣) النصوص الدالة على ذلك كثيرة، انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم ١٢١٨.
(٤) السنن الكبرى للبيهقي: ٥ / ٧٤، وقال ابن كثير في السيرة النبوية: ٤ / ٣١٧: وهذا إسناد جيد.

ثم يرمي الجمرة الوسطى فيأخذ ذات اليسار مما يلي الوادي، فيقوم قياماً طويلاً مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو، ثم يرمي الجمرة ذات العقبة من بطن الوادي،ولا يقف عندها،وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يفعله،ويقول: «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل»(١).

كما كان ﷺ خاشع الجوارح، يسير سيراً ليناً بسكينة ووقار، ويؤدي مناسكه بتؤدة واطمئنان، يدل لذلك قول جابر ـ رضي الله عنه ـ: «أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة»(٢)، وحديث الفضل بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «فلما أفاض سار على هِيْنَتِه حتى أتى جَمْعاً»(٣)، وحديث عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم،وقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع»(٤).

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، ١٧٥٣، وقال ابن القيم في الزاد: ٢/٢٨٦ مبيناً سبب عدم وقوفه ﷺ بعد جمرة العقبة: «فلما أكمل الرمي، رجع من فوره ولم يقف عندها، فقيل: لضيق المكان بالجبل. وقيل ـ وهو أصح ـ: إن دعاءه كان في نفس العبادة قبل الفراغ منها، فلما رمى جمرة العقبة، فرغ الرمي، والدعاء في صلب العبادة قبل الفراغ منها أفضل منه بعد الفراغ منها، وهذا كما كانت سنته في دعائه في الصلاة، إذ كان يدعو في صلبها، فأما بعد الفراغ منها، فلم يثبت عنه أنه كان يعتاد الدعاء، ومن روى عنه ذلك فقد غلط عليه».

(٢) سنن النسائي، رقم: ٣٠٢٤، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم: ٢٨٢٧.

(٣) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٦، وإسناده صحيح. وجَمْع: مزدلفة.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ١٦٧١، ومعنى الإيضاع: السير السريع، ومن هذا الحديث أخذ عمر ابن عبد العزيز قوله ـ لما خطب الناس بعرفة ـ: «ليس السابق من سبق بعيره وفرسه، ولكن السابق من غفر له»، انظر: فتح الباري: ٣/٥٢٢.

فخُذ الهدي المنجي عن النبي ﷺ، والبس رداء السكينة وثوب الوقار،وأدِّ نسكك بهدوء بال،واستحضار لمعنى ما تقول وتفعل؛ فإن ذلك مما يورثك الحكمة،ويحول بينك وبين الباطل،وأرح نفسك بحجك،وإياك وفعل الجاهلين الذين لا هَمَّ لأحدهم إلا إنهاء النُّسك ومفارقته،وكأنهم ـ بلسان الحال ـ يقولون: ربنا أرحنا منه،لا، أرحنا به.

٧ـ الاستكثار من الخير ومباشرته:

حث الله عباده على التزود من التقوى، والتسابق في الخيرات، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٧]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٣٣]، وقد كان هذا هدي النبي ﷺ في الحج وديدنه فيه، **ومن المظاهر الدالة على ذلك**:

حرصه ﷺ **على المجيء بمستحبات النُّسك**: كالاغتسال للإحرام [١]، والتطيب عند الإهلال به، وعند الخروج منه[٢]، وإشعار الهدي وتقليده[٣]، والإكثار من التلبية والجهر بها حتى رمي جمرة العقبة[٤]، وبدء البيت

(١) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٣٠، وقال عن الحديث: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٦٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٣٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٥، ١٦٩٧.

(٤) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤، ١٥٧٣، صحيح مسلم، رقم: ١١٨٤.

بالطواف[١]، والرمل فيه[٢]، والاستلام للركنين[٣]، وصلاة ركعتي الطواف خلف المقام[٤]، والدعاء على الصفا والمروة،والسرعة الشديدة في بطن الوادي[٥]، والذكر عند استلام الركنين ورمي الجمار[٦]، وغيرها من السنن كثير.

ومنها: تأخره ﷺ في الإفاضة من مزدلفة إلى أن أسفر جداً قبيل طلوع الشمس، مع أنه ﷺ كان يسَعُه الإفاضة قبل ؛ لوجود الضَعَفة من أهله معه[٧].

ومنها: إهداؤه ﷺ مائة بدنة[٨]، مع أنه كان يكفيه عن كل ذلك سُبع بدنة، أو بقرة، أو واحدة من الغنم[٩].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦١٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٦١٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٩، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، المسند لأحمد، رقم: ٤٦٨٦، وإسناده صحيح.

(٤) انظر: جامع الترمذي، رقم: ٨٥٦ وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، رقم: ٦٧٩.

(٥) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨،١٢٦١.

(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٠، صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٣.

(٨) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٨.

(٩) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٨٨، حجة الوداع لابن حزم: ١٣٩، زاد المعاد لابن القيم: ٢/٢٢١.

والملاحظ أن النبي ﷺ قد باشر جميع المناسك بنفسه،ولم يُنِب أحداً عنه فيما تدخله النيابة إلا عند الحاجة إلى ذلك - وفي أمر الهدي خاصة - حين أناب ﷺ علياً - رضي الله عنه - بأن ينحر عنه باقي هديه، بعد أن كان ﷺ قد نحر منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة(١)، وقد جاء أنه ﷺ أشركه في الهدي معه(٢)، وعليه فليس هناك من إنابة.

ولا يُشكِل على هذا التعميم اتخاذه ﷺ للخدم، واستعانته ببعض أصحابه - رضي الله عنهم - في بعض الأمور: كإشعار بعض الهدي(٣)، وضرب قبة له في نمرة (٤)، والتقاط الحصى له من مزدلفة(٥)، والعناية بدابته واستصلاح ركابه(٦)، ونحو ذلك؛ لأن تلك الأمور إما أنها ليست من أعمال النُّسك أصالة، أو ليست من أعماله المباشرة.

وبالجملة فالمشاهد لمن تأمل حجه ﷺ يجد: سعيه الشديد ورغبته الأكيدة

(١) انظر: سنن ابن ماجة رقم: ٣٠٧٤، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٩٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٢٥٠٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر: صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٦٠٩، وإسناده صحيح، السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٢٢٨.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٢٩، وصحح الحديث الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٥٥.

(٦) انظر: المسند لأحمد، رقم: ٢٧٢٩٠ من حديث معمر بن عبد الله - رضي الله عنه - ، وأفاد الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/ ٢٦١ بأن فيه من لم يوثق ولم يجرح.

في أداء النُّسك على وجهه الأكمل،وإتيان الفاضل من الأعمال، وعدم فعل المفضول إلا عند وجود مصلحة راجحة في ذلك، كطوافه بالبيت، وسعيه بين الصفا والمروة راكباً(١)، واستلامه الحجر الأسود بمحجن(٢) وذلك عندما غشاه الناس، وكان يرغب ﷺ في رؤية الناس له؛ ليسألوه ويأخذوا عنه.

فاعقد العزم على المسابقة في الموسم بفعل الخيرات،والاستكثار من القربات؛ فإنك في خير أيام الدنيا، وفي موسم يُتقَى الله فيه ويُبَر، ويُذكَر فيه ويُناجَى،وهو ـ سبحانه ـ لا يناله منك إلا تقواك له(٣)،ولا ينظر منك إلى الصورة والمال، ولكن إلى القلب والعمل(٤)، فشمِّر عن ساعد الجد،وكن ذا همة عالية،واحذر الفتور والتقاعس؛ فإن العمر يمضي،والأيام لا تعود، وتذكَّر بأن اليوم عمل ولا حساب،وغداً حساب ولا عمل، فمن عمل نجا وأفلح، ومن ضيَّع هلك وسقط، والأمر كما قال ﷺ: «ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه»(٥).

(١) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٠٨، المسند لأحمد، رقم: ٣٤٩٢، ١٤٤١٥، وإسناده صحيح.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٥، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨، والمحجن: عصا منحنية الرأس، انظر: النهاية لابن الأثير: ١/ ٣٤٧.

(٣) كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

(٤) انظر: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في صحيح مسلم، رقم: ٢٥٦٤، ولفظه: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٥) صحيح مسلم، رقم: ٢٦٩٩.

٨ـ التوازن والاعتدال:

خير الأمور الوسط،وكلا طرفي قصد الأمور ذميم،وذلك ما جاء به الشرع الحنيف؛ إذ قال ﷺ: «عليكم هدياً قاصداً ـ ثلاث مرات ـ؛ فإنه من يشادّ الدين يغلبه»(١)،وقال ﷺ: «القصدَ القصدَ تبلغوا»(٢).

وفي الحج كان من أبرز أحوال المصطفى ﷺ، وما تجلى من خُلُقه: التوازن والاعتدال، وكراهية الإفراط والتفريط، **ولعل الذي يعنينا من ذلك في حاله مع ربه ـ عز وجل ـ أمران:**

الأول: اعتداله ﷺ وموازنته بين العناية بنفسه من خلال قوة صلته بربه ـ سبحانه ـ من جهة(٣)، وبين التعليم لأمته وقيادتها،والرعاية لزوجاته،والحنو على أهل بيته من جهة أخرى(٤).

الثاني: اعتداله ﷺ وموازنته بين كل من حقوق روحه وجسده،إذ في ذلك الجو الإيماني المهيب الذي قد يدفع الكثيرين إلى التفريط في حق الجسد والإفراط في حق الروح،نجده ﷺ معتنياً بجسده غاية العناية، إذ صعد يوم

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٩٧٨٦، وإسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٤٦٣.

(٣) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ١٧٥١، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٤) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، رقم: ٣٠٥، ١٥٥٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

التروية إلى منى ليقرب من عرفة[١]،ونام ليلة عرفة ومزدلفة[٢]، وأفطر يوم عرفة [٣]، واستظل فيه بقبة من شعر ضُربت له قبل[٤]، وترك ليلةَ جَمْع صلاة النافلة قبل الصلاتين وإثرهما، ونام تلك الليلة حتى أصبح دون أن يحييها[٥]، وركب في تنقلاته بين المشاعر[٦] وأثناء قيامه ببعض أعمال الحج كالطواف والسعي ورمي جمرة العقبة[٧]، واتخذ ﷺ مَنْ يخدمه ويقوم بأمره[٨]...ونحو ذلك من الأمور التي ترفق بالجسد، وتمكنه من التقوِّي على فعل المقصود الأعظم هناك، وهو: الدعاء والمناجاة،وأداء النسك بحضور قلب وإعمال فكر،وخشوع واطمئنان.

ولعل من أجلى ما يدل على هذا التوازن والاعتدال حديث أم الحصين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة وانصرف وهو على راحلته،ومعه بلال وأسامة، أحدهما يقود

---

(١) انظر: سنن أبي داود ، رقم: ١٩١١، وصحح الحديث الألباني في صحيح أبي داود، رقم: ١٦٨٢، سنن ابن ماجة، رقم: ٣٠٠٤،٣٠٧٤، وصحح الحديثين الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٤٣٣، ٢٤٩٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٥٨.

(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٧٣، زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٢٤٧.

(٦) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٦٦٦، صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، رقم:١٦٠٧، صحيح مسلم، رقم: ١٢٧٣، ١٢٩٧.

(٨) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣١٣، المسند لأحمد، رقم: ٢٧٢٩٠.

به راحلته،والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس، قالت: فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً، ثم سمعته يقول:إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا»[١]، وقد نقلت ـ رضي الله عنها ـ في هذا الحديث عن النبي ﷺ أموراً مختلفة، كالرمي، والركوب، والاستظلال، والسير بوقار،وخدمة بعض أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ له، وتعليمه ﷺ الناس،ووعظه إياهم.

فإن كنت تريد البلوغ، فالزم سنَّة من وجَّهك ﷺ فقال لك وللسائرين على الطريق معك: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا،واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٢]، ولا ترغب عنها فتهلك، فقد حذَّرك ﷺ فقال لك:«فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣]، فأوغل في دين الله برفق،ودع التكلف، وعليك بالقصد والاعتدال،ولا تُبَغِّضْ عبادة الله ـ تعالى ـ إلى نفسك، «فإن المُنْبَتَّ لا يقطع سفراً، ولا يُبقِي ظهراً»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ١٢٩٨.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم: ٥٠٦٣.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي، رقم: ٣٨٨٥، وقد روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ موصولاً ومرسلاً، والراجح إرساله، انظر: كشف الخفاء للعجلوني، رقم: ٢٣٣٩.

٩ـ الزهد في الدنيا:

كان النبي ﷺ متعلق القلب برضى ربه ـ عز وجل ـ، معرضاً عما لا ينفع في الآخرة، زاهداً في الدنيا مع قدرته عليها، إذا حصلت له أنفقها هكذا وهكذا في عباد الله، دون أن يدخر لنفسه أو لأهل بيته شيئاً منها، وصفه ﷺ الواصف فقال: «أمَّا هو فكان أزهد الناس بالدنيا»(١)، **وصور زهده في الدنيا تترى، تكاد لا تُنهى، ومن ذلك:**

أنه ﷺ كان يدعو ربه قائلا: «اللهم ارزق آل محمد قوتاً»(٢)، وفي رواية: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً»(٣).

ومنها: أنه ﷺ كان يظل اليوم يلتوي من الجوع فلا يجد من التمر الرديء ما يملأ به بطنه، كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد دقلاً يملأ به بطنه» (٤).

ومنها: أنه ﷺ مضى لسبيله، ولم يشبع هو وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُرٍّ، كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة

---

(١) المسند لأحمد، رقم: ١٧٧٧٣، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٤٦٠.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٠٥٥.

(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٧٨، والدقل: رديء التمر ويابسه، انظر: النهاية لابن الأثير: ٢/ ١٢٧.

أيام تباعاً من خبز بُرٍّ حتى مضى لسبيله»(١)، وفي رواية: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثاً»(٢).

وقد تجلى في الحج تعلقه ﷺ بالآخرة حين وقف بعرفة فقال: «لبيك اللهم لبيك، إنما الخير خير الآخرة»(٣)، وفي رواية: «لبيك، إن العيش عيش الآخرة»(٤).

أما مظاهر زهده ﷺ التي تبدت للناظرين أثناء الموسم فكثيرة تكاد لا تُحصى، ومن أبرزها:

أنه ﷺ حج على رحل رثٍّ وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي(٥)، قال ابن القيم: «وكان حجه على رحل، لا في مِحْمَل، ولا هَوْدَج، ولا عمَّارية»(٦)، وقد تذكَّر صاحبهُ ابن عمر - رضي الله عنهما - بعد سنين حاله ﷺ تلك، حين مرت به رفقة يمانية، ورِحَالُهُم الأُدُم، وخُطُم إبلهم الخُزُم، فقال: «من أحب أن ينظر إلى أشبه رفقة وردت العام برسول الله ﷺ وأصحابه إذ

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٧٠.

(٢) صحيح البخاري، رقم: ٥٤٣٨.

(٣) صحيح ابن خزيمة، رقم: ٢٨٣١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ٥٠٥٨.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٣/٤٤٢ موصولا، السنن الكبرى للبيهقي: ٥/٤٥ مرسلاً.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة، رقم: ٢٨٩٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم:٢٣٣٧.

(٦) زاد المعاد: ٢/١٦٠، والظاهر أن المحمل والهودج والعمارية: أدوات تجعل فوق الدابة ليسهل على المرء ركوبها.

قدموا في حجة الوداع . . فلينظر إلى هذه الرفقة »[١].

ومنها : أن راحلته ﷺ كانت زاملته التي يحمل عليها متاعه وزاده، ولم تكن له ناقة أخرى خاصة بذلك، كما جاء في حديث ثمامة قال : « حج أنس على رحل، ولم يكن شحيحاً، وحدَّث أن رسول الله ﷺ حج على رحل، وكانت زاملته »[٢].

ومنها : إردافه ﷺ على راحلته أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ من عرفة إلى مزدلفة، والفضل بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ من مزدلفة إلى منى[٣].

ومنها : عدم تميزه ﷺ في الموسم عن الناس بشيء،وأعظم ما تجلى فيه ذلك أنه ﷺ « جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس :يا فضل، اذهب إلى أمك،

---

(١) سنن أبي داود، رقم: ٤١٤٤، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٤٩١، المسند لأحمد، رقم:٦٠١٦، وإسناده صحيح، واللفظ له، والأدم: جمع أديم، وهو: الجلد المدبوغ، والخطم: جمع خطام، وهو: حبل يجعل في أنف الناقة لتقاد به، والخزم: حلقة من الشعر تجعل في أحد جانبي أنف الناقة، انظر: شرح مسلم للنووي: ٢/ ٢٩٩، عون المعبود للعظيم آبادي: ١٠/ ١١٧، المصباح المنير للفيومي: ١/ ١٦٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥١٧، وجاء عند أبي داود، رقم: ١٨١٨ عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ: « أن زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ كانت واحدة »، وفيه عنعنة ابن إسحاق،وإن كان الألباني قد حسنه في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٦٠٢، على أنه قد ورد من حديثها عند ابن ماجة، رقم: ٢٩٣٣، قالت: « وكانت زمالتنا وزمالة أبي بكر واحدة »، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٢٣٧٣، فالله أعلم.

(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٤٤.

فأْتِ رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال :اسقني، قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه»(١)، وفي رواية أنه ﷺ قال ـ حين قالوا: نأتيك به من البيت ـ:«لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب منه الناس»(٢).

ومنها: عِظَم هديه ﷺ، إذ قرَّب مائة بدنة(٣)، ومن تعلق قلبه بالدنيا لا يخرج شيئاً فوق الحد الواجب.

ومنها: جمعه ﷺ ـ كما هو الظاهر ـ بين الهدي والأضحية(٤) مع أن الهدي يجزئ الحاج عنها.

ومنها: كثرة تصدقه ﷺ وإطعامه للناس، إذ نحر يوم التروية بيده الشريفة سبع بدنات قياماً(٥)، وأمر علياً ـ رضي الله عنه ـ يوم النحر أن يقسم بُدْنَه كلها :لحومها وجلودها وجلالها في المساكين(٦).

ومنها: قسمته ﷺ للصدقة بين الناس، إذ عمد يوم النحر إلى جُزَيْعَة من

(١) صحيح البخاري، رقم: ١٦٣٦.
(٢) المسند لأحمد، رقم: ١٨١٤، وهو حديث صحيح.
(٣) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٧١٨.
(٤) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٣١٨٠، حجة الوداع لابن حزم: ١٢٣، ٣٠١، وما بعدها.
(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ١٥٥١، سنن أبي داود، رقم: ١٧٩٦.
(٦) انظر: صحيح مسلم، رقم: ١٣١٧، والجلال: ما يجعل على ظهر الدابة لتصان به، انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، مادة: جلل.

الغنم فقسمها(١)، وجاءه رجلان في حجته ـ وهو يقسم الصدقة ـ فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفض، فرآهما جلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»(٢).

ومنها: تواضع طعامه ﷺ إذ حين ذبح أضحيته في حجة الوداع قال لثوبان: «أصلح هذا اللحم»، قال ثوبان: «فأصلحته، فلم يزل يأكل منه حتى بلغ المدينة»، وفي رواية: «فلم أزل أطعمه منها حتى قدم المدينة»(٣).

فإن كان لك قلب تبصر به فاتق الدنيا وزينتها،وإياك أن تكون ابناً لها أو عبداً؛ فإنها دار فناء وهوان وذل، إنها «دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»(٤)، ولو كانت دار رضى لاختارها الله ـ تعالى ـ لأوليائه، والصفوة من خلقه، فلا تأمنها، وإياك وفتنتها، فإنما هي متاع الغرور.

هذه بعض المظاهر المضيئة والصور المشرقة من جوانب صلة النبي ﷺ في الحج بربه،وخضوعه لخالقه،وانقياده لمولاه،مع كثرة وظائفه ﷺ وعظم

(١) انظر: صحيح مسلم، رقم: ٣١٨٠، والجزيعة من الغنم: القطعة منها تصغير: جِزْعة بالكسر، وهو القليل من الشيء، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ١/ ٢٦٩.

(٢) سنن أبي داود، رقم: ١٦٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم: ١٤٣٨.

(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٩٧٥.

(٤) المسند لأحمد، رقم: ٢٤٤٦٤ من حديث عائشة مرفوعاً، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٨٨ بأن رجاله رجال الصحيح غير ذويد، قال: وهو ثقة، وهو في شعب الإيمان للبيهقي، رقم: ١٠٦٣٧، عن ابن مسعود موقوفاً.

مسؤولياته،وها هي الفرصة تواتيك،وسوق القربات وموسم الطاعات يمر عليك، وستقف بين يدي الله ـ تعالى ـ وأنت قد قصَّرت في جنب الله،وتهاونت في أمره،وتكاسلت عن طاعته بل قد تجاوزت حدوده فوقعت في الخطأ والذنب كما يدل على ذلك قوله ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[١]،فهلا اقتديت فيه بالنبي ﷺ فكنت من هذا الصنف الخيِّر،فاجتهدت في أن تظهر لله عبوديتك،وتبين له انقيادك:مسابقة في مراضيه،وهروباً عن معاصيه، فتُحصِّل بذلك القرب منه،وتنل به المحبة والرضى،وتحظَ منه بالحفظ والرعاية،كما يدل لذلك قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه،وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به،وبصرَه الذي يبصر به،ويدَه التي يبطش بها،ورجلَه التي يمشي بها،وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٢].

---

(١) سنن ابن ماجة، رقم: ٤٢٥١، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، رقم: ٣٤٢٨.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٦٥٠٢.